أسرار الزهور

رقتها وعذوبة كلماتها مع صديقتها تجعل أيًّا منا يأبى سد أذنيه قبل أن يسمعها، ثلاثينية جميلة – مثقفة تنصح صديقتها الستينية الرصينة بكتابة مقالات في الجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية الكبيرة، بعدما قرأت بعض خواطرها على صفحتها بالفيسبوك.

ما سبق كان موقفًا عابرًا في عربة مترو شبرا – الجيزة بين سيدتين تجلسان على مقعد ثنائي أمامي.

بدأ الحوار بسؤال الثلاثينية:

– ليه عاوزة تحرمي الناس من روعة حرفك وعظمة إحساسك وقوة منطقك في التعبير عن قضايا المرأة والمجتمع؟؟

وقبل أن تجيب الستينية، عاجلتها الثلاثينية بسؤال آخر:

– متى ستقررين هذا الأمر؟ ألم يحن الوقت لكي تبدئي؟

– أنتِ تَرَيْنَني أملك موهبة الكتابة، وهذا شعور راقٍ جدًّا منك حبيبتي، وقد حدثتني نفسي أكثر من مرة بدخول هذا المجال، لكني كنت دائمًا أؤجله لظروفي الخاصة، على أمل أنه بوسعي أن أبدأ في أي مرحلة عمرية.

وتردف الستينية:

– نعم عزيزتي، لقد مارست التعبير عن نفسي طوال حياتي بالكتابة، وقد سمعت هذه النصيحة من كثيرين قبل ذلك، ولكن في خريف العمر أيقنت أن مكاني ليس في الكتابة، وإنما في البيت. نعم في البيت وسط نباتاتي التي أحبها وأتفقدها يوميًّا، وتحديدًا في الصباح الباكر.

من محطة الأوبرا تصعد بائعة سماعات هواتف نقالة، تدور على ركاب العربة بصوتها الناعم:

– بصي يا ستي، بص يا أستاذ، أنا النهارده جاية أقدم لكم عرض خاص، سماعة المحبين والخلان والقرايب، سماعة الأسرار، وسماعة كل المنافع. مش هاقول لكم بعشرة جنيه، ولا بسبعة، ولا حتى بستة. كل من طلع خمسة جنيه هياخد هديته من سنية، وسنية دي تبقى أنا أختكم الغلبانة. مين هتشتري مني؟ طيب مين هيشتري منى طالما الستات مخاصمني؟ هههههه».

تبتسم الستينية تعاطفًا ومحبة مع البائعة، وتنادي عليها:

– تعالى حبيبتي، أعطيني سماعتين، وآدي يا ستي 20 جنيه ثمن 4، ولا تزعَّلي نفسك.

البائعة تشكر الستينية، وتدعو لها قبل أن تنزل محطة الدقي:

– روحي يا ستي، يا حبيبتي، الله يسترك ويخلي لك جوزك وأولادك.

الثلاثينية بصوت هادئ للستينية:

– الله على دي دعوة، هو فيه أحسن من الستر؟ الله يكرمك، شفتي إنك إنسانة جميلة القلب؟

الستينية:

- الحمد الله على نعمته التي لا تحصى ولا تعد.

الثلاثينية تغلق موضوع البائعة، وتكرر محاولة إقناع صديقتها بالبدء في كتابة المقالات...

تقاطعها الستينية، وتوضح:

- النباتات بالنسبة لي يا صديقتي كأولادي الصغار، تغمرني فرحة الأطفال عند رؤيتي لبرعم أو أوراق صغيرة جديدة على الأغصان، فهذه علامات الاستمرارية والحياة المتجددة، كذلك أحزن – كل الحزن - عندما تمرض إحدى نباتاتي وتنكفئ على نفسها، وأحاول جاهدة معالجة الأمر، فأتابعها على مدار الأيام، بل والساعات، وقد تفلح محاولاتي، وقد لا تفلح.

الثلاثينية:

- لكن هذه الحياة رغم متعتها، لا بد أن....

الستينية توضح موقفها:

- صديقتي الرائعة دائمًا، الزراعة ترقب وأمل وحياة.. أهتم بها وسط هواياتي المتعددة.. والتي تتمحور معظمها حول الأشغال الفنية اليدوية، طبعًا إلى جانب قراءاتي وحبى للتأمل وسماع الموسيقى (الكلاسيك) وكتابة خواطري التي تعجبك أحيانًا على الفيس.

الثلاثينية بحُنُوّ ومودة:

- معاك حبيبتي، لكن فين انتي من أهلك وناسك وكل اللي بيحبوكي؟

الستينية تضحك:

- هههههه... تاني يا ستي، مكاني أيضًا أقضيه بجانب المقربين جدًّا مني، فأنا

أمثل لكل شخص منهم عدة أدوار، فقد أكون الأخت أو الصديقة أو الأم أو شريكة العمر، أو هذه الأدوار مجتمعة، وهؤلاء أيضًا يمثلون بالنسبة لي كل حياتي.

الثلاثينية تواصل محاولتها:

- لكني أشعر في كتاباتك الفيسبوكية بعض الألم والمعاناة، فهل لذلك تفسير؟

الستينية:

- هذه المعاني أحاول دائمًا أن أجملها بأبسط الأشياء، لعلنا نتناسى ونرتفع فوق الألم وخيبات الأمل التي نواجهها ككل البشر.

وتواصل:

- فالكتابة بكل أنواعها ما هي إلا وسيلة رائعة للتعبير عن موقفنا عموما من الحياة، ومن يكتب لا يتوقف حتى النهاية، فالكتابة كالماء والهواء بالنسبة للكاتب.

الثلاثينية:

- الله الله، إذًا فلتكن البداية صديقتي الفيلسوفة.

الستينية تزيد من ضحكاتها:

- هههههه، فيلسوفة مرة واحدة. الكتابة يا عزيزتي طريق طويل لم أسلكه منذ البداية كهدف لحياتي، وقد تجاهلت هذا الطريق عن عمد، بل وأغلقت هذا الباب ورائي، وسلكت أبوابًا أخرى شاقة ومضنية، واليوم أدرك أن لا شيء يحدث بالصدفة، وأن كل ما حدث كان مقدرًا رغم حريتي المطلقة في الاختيار.

الثلاثينية:

- حيرتيني يا ست الستات.

الستينية:

– أنا!!!، ليه بس؟! كل ما في الأمر أن اختيارات الأمس أدت لسلسلة أخرى من الاختيارات الحرة، أو التي تبدو كذلك، وتلك الاختيارات لم يكن بينها الكتابة.

وتواصل:

– واليوم أدركت أن هناك قوة جبارة لا نهائية تهيمن على كل الأمور، وتسبب الأسباب والنتائج رغم حريتنا المطلقة في الاختيار!

وتختتم الستينية حديثها وهي تهمُّ بالنزول مع صديقتها محطة السادات بالسؤال التالي:

– حبيبتي، هل وفِّقْتُ في الإجابة عن أسئلتك؟ أم أنني زدت الأمر تعقيدًا، وطرحت اسئلة لا يملك معظمنا الإجابة عنها؟!

الثلاثينية بابتسامة عريضة:

– غلّبتيني معاك يا فيلسوفة. صحيح على رأي المثل: «الناس فيما يعشقون مذاهبُ».. انتهى.